كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني
دراسة تحليلية نقدية

أ.ميسوم بلقاسم
جامعة بسكرة

ردا على الاحتفالات المئوية التي أثارت ضجة عميقة في النفوس، أصدر المدني كتاب الجزائر سنة 1932 منفذا بذلك جزءا من الوعد الذي قطعه على نفسه إثر المناسبة المئوية بتأليف كتاب الجزائر، فعبّر عن رد الفعل الوطني تجاه الاحتفالات، كثيرة الإطراء، والتي أكدت أن الجزائر عبارة عن مقاطعة فرنسية، فكان الكتاب موجها، ومستوحى من ذلك الوضع. ويظهر جلاء نظرة المدني للكتابة من خلال ما أورده في المستهل حول أهمية معرفة التاريخ والواقع، ورأى أنه الأوان ليعرف الشعب حالته الشخصية غير مشوهة، خاصة وأن أبناء العربية يجهلون كل شيء عن هذا الوطن : تاريخه، طبيعته، نظمه، قوانينه، حالته الأدبية وقوته الاقتصادية، فكأنهم يعيشون في ديار غير ديارهم [1] نجد المدني يضع ديباجة كتابه بكلمات مؤثرة، رفعها شعارا للشباب الجزائري : " الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا". ويعالج مشكلة الفراغ الذهني التاريخي لدى الشباب الجزائري من مثقفين بالفرنسية، بعضهم تمزق ذهنه إلى انجذاب نحو التاريخ الدخيل ونفور من التاريخ الجزائري المشوه [2]

ومن مثقفين بالعربية خانتهم المراجع الرابطة للماضي بالأصالة والنزاهة، فهو يقول :"إنكم ترون كما رأيت أن أبناء العربية في الجزائر يجهلون كل شيء عن هذا الوطن ...، وكأنهم خلقوا على أرض مبتورة الأصل مجهولة النسب، فهم لا يبحثون عن حوادث

أمسها، ولا يهتمون لحالة يومها، ولا يتساءلون عن مستقبل غدها [3]

ومن خلال ذلك يظهر لنا أن البلاد كانت في ضياع، فالمفكرون الجزائريون لم يكتبوا تاريخهم كما ينبغي الأمر، ولذلك رأى ضرورة وضع الأهالي أمام حقيقتهم، بتقديم حالتهم الشخصية غير مدلّسة أو مشوهة، وغير خاضعة للدعاية المغرضة ولا للتزييف الاستعماري، وعن ذلك قال: " هذا الكتاب صورة حقيقية لقطر الجزائر السعيد، لم ترسمها ريشة مصوّر، إنما رسمها قلم باحث، جعل همّه ذكر الحقائق كما هي " [4]ى يثبت أن الجزائر عربية إسلامية وطنية، وأنها لم تكن ولن تكون فرنسية، وأن آمالها الحرية والاستقلال [5]حتى يتسنى أيضا للباحثين معرفة المدى الذي بلغته الجزائر من الرقي والانحطاط في جميع أطوار حياتها .

ب -مواضيع كتاب الجزائر:

يتوزع الكتاب على أربعة عشر قسما، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مواضيع، هي : التاريخ والجغرافيا والحالة الراهنة (1930)، أما التاريخ فيضم الأقسام (من1 إلى6)، وهي تؤرخ للجزائر من أقدم العصور إلى سنة 1930، وقفا بذلك على ذكر التاريخ العلمي والأدبي إلى ذات السنة . وذكر خلاصة عن العنصر البربري: أصوله وعوائده ونظمه وقبائله، ثم العنصر العربي من حيث أصله وقبائله، ومضاربه، وأخلاقه. ونظرا لوجود عناصر أخرى من غير البربر

والعرب، فقد تعرض لهم وهم : اليهود والأوربيون، ورأى في تكاثر الأجانب نتيجة لقوانين التجنس الفرنسي التي تسمح بدخولهم في الجسم الفرنسي، ثم وضّح حالة المستعمرين وسياستهم العنصرية مع الأهالي من تحقير وتهميش.

أما أقسام الجغرافيا : فتضم السابع والثامن، بحيث قدّم بطاقة تعريف للطبيعة الجزائرية من حيث الموقع، والحدود، والمساحة، والسواحل، والتضاريس، والغلاف النباتي، ثم تعرّض لتقسيم الجزائر الإداري على عهد الاحتلال (المقاطعات)، وأعطى إحصاء للسكان عامة من أهالي وأجانب، وقام بترجمة لاثنين وسبعين مدينة من أمهات القطر الجزائري.

والموضوع الخاص بالحالة الراهنة (1930) يضم بقية الأقسام (من 9 إلى 14)، عن الحكومة المركزية والإدارة العامة، والمجالس المنتخبة بالقطر، والتعليم العام، والنظام القضائي والعدلي، والحالة الاقتصادية، وحالة المسلمين (وضعيتهم القانونية المتذبذبة وقضية التجنيس الفرنسي والحالة الصحية والعمال والمرأة والموسيقى والتمثيل والصحافة والدين ونهضة الجزائر الحديثة)، وأخيرا الحالة الاقتصادية العامة. ومن خلال ما سبق نجد أن حصة المواضيع التاريخية قليلة جدا، والمقصود بها التأريخ للدول الماضية ومدى تواجدها وحضارتها ودور الجزائريين عبر التاريخ، فجاء ذلك في شكل مختصر جدا، مما جعل سعد الدين بن شنب يقدّر الحجم

التاريخي بربع الكتاب [6] لذلك اعتبر الكتاب عند صدوره غير تاريخي [7]

جـ -المصادر والمراجع :

ساعدته معرفة الفرنسية الاعتماد على مؤلفات مكتوبة بأقلام فرنسية خاصة، منها كتاب موريس فيوليت : هل تعيش الجزائر؟ ستيفن قزال : تاريخ إفريقيا الشمالية ، تقويم المنصور لسنة 1929/1348، وبعض الدوريات، كما اعتمد على مشاهداته لمعاصرته الأحداث. والمصادر المؤكدة هي التي تفيدنا بأخبار وتصف أحداثا خاصة بالفترة التي عاش فيها صاحبها[8] ك لأن الكتابة التاريخية المعاصرة لزمن الأحداث تعتمد كثيرا على المعاينة والمشاهدة والسماع من مصادر متنوعة .

واستخدم وثائق في غاية الأهمية، مؤلّفه من نصوص رسمية، وإحصاءات، وقوانين مأخوذة كلها من دفاتر الإحصاء الرسمي لسنة 1931. وقد وظّف المدني في "كتاب الجزائر" طريقة غير مألوفة، وهي وضعه لخط من أول الكتاب إلى آخره تحت كل جملة تفيد بأن الجزائر لا تعتبر مقاطعة فرنسية، أو تعبر عن الشخصية الجزائرية، أو تحت الجمل التي تتمحور حول سياسة فرنسا أو حالة الجزائريين السيئة، ووضع سطرا تحت كل انتقاداته وآرائه واقتراحاته، فمثلا في الصفحة 351 أغلب جملها تحتها سطر، وذلك في سياق حديثه عن الزوايا التي ضلّت الطريق.

واعتمد هذه الطريقة حتى يلفت انتباه القارئ إلى ما يقرأ، ويظهر من ذلك أنه كان يكتب للطبقة العامة من المجتمع والتي لها مستوى علمي محدود .

وأبدع المدني في اختيار صورة الغلاف، المرسومة بريشة عمر راسم، فكتب العنوان "كتاب الجزائر" بخط كوفي متداخل، وتحت العنوان هذه العبارة: تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية والسياسية وعناصر سكانها ومدنها ونظمها وقوانينها ومجالسها وحالتها الاقتصادية والعلمية والاجتماعية. ووضع إطارا كاملا وكأنه نافذة مشرفة على الجزائر وماضيها، ويظهر من خلالها البحر، وأمامه بناية تعلوها صومعة، وعلى سطح البحر توجد سفن، تعلو إحداها راية هلال، كتب عليها : "حب الوطن من الإيمان"، وبين الصومعة والراية توجد هذه العبارة : الإسلام ديننا، الجزائر وطننا، العربية لغتنا، ونهاية الراية تكاد تلتصق بعبارة الجزائر وطننا

فكانت اللّوحة تحمل رسالة وطنية موجهة بمحتوى فني أصيل. ووظّف وسائل توضيحية منها : خريطة ملونة بسبعة ألوان، مبينة ارتفاع الأراضي وانخفاضها والسهول وهضابها والجبال وأوديتها والطرق الكبرى والسكك والحدود.

وجدول القبائل العربية المهاجرة وأقسامها، وآخر عن الإحصاء العام لسكان الجزائر حسب الإحصاء الرسمي ليوم 08 مارس 1931، وجدولا ثالثا عن المدن الكبيرة وعدد سكانها.

أما اللغة فهي قوية، تدل على نضج لسان صاحبها، ميسورة الفهم، وذلك من ميزات المدني في كل كتاباته.

ء - أصداء عن ظهور الكتاب :

في ظل الظروف الاستعمارية نجد أن صفحات المدني كان لها الصدى في الداخل والخارج، وذكر أنه يحتفظ بـ533 رسالة أغلبها من البلاد الجزائرية وهي تقريظ للكتاب.

ومن خلال تصفح الكتب المختلفة، وجدت تقاريظ عديدة، فقد قال شارل روبرت أجيرون:

"... منذ سنة 1931 تأسست جمعية العلماء الإصلاحية، من بينهم مبارك الميلي، وتوفيق المدني، وهما أول من ألّفا في التاريخ الوطني الجزائري بالعربية، فكتاب التاريخ الذي ألّفه المدني سنة 1931، كان يحمل فوق غلافه شعار جمعية العلماء: الإسلام ديننا، الجزائر وطننا، العربية لغتنا، وخلقت في الجزائر كلمات تحمل معاني جديدة في اللغة العربية ككلمة وطن، أمة جزائرية، شعب..."(9)

أما أمير البيان شكيب أرسلان، فقد قال :

"ظهر "كتاب الجزائر" بقلم الوطني الفاضل أحمد توفيق المدني، جمع هذا الكتاب كل ما تلزم معرفته من شؤون الجزائر بحيث لا يصح أن يخلو منه أحد ممن يريدون حق الاطلاع على أحوال المغرب الأوسط "[10]

كما أقرضته مجلة المجمع العربي بدمشق بمايلي :

"...رسم لنا صورة الجزائر طبق الأصل بحيث من يقرأ كتابه يلم بتاريخ ذلك القطر وتقويم أرضه وعادات أهله وأخلاقهم وأصول إدارته وقبائله ومراكزهم وعناصر سكانه، فيه روح الشباب والتجدد ولا تصح أن تخلو منه خزانة كتب شرقية ..."[11]

وقال الشيخ بن باديس: "الخدمات التي يجب تقديمها للبلاد في مثل هذا الظرف هي نظير ما اختطه المدني، مما يجعل الشباب عارفين لوطنهم...فاكتشاف كل ما كان للوطن من عز وسوء هو أول عمل مثمر، والسمو بالوطن إلى كل مكانة يحمدها له العصر الحاضر والظرف الراهن أجلّ عمل، فالذي يحمل كل فكرة وطنية لا يصدق فيما يقول إلاّ إذا خدم الوطن من الناحية التي خدمها المدني [12]

وأورد المدني في مذكراته تقريظ عمر راسم الذي قال : "تأليفك لكتاب الجزائر يعتبر عملا جليلا، لا ينكر قدره ومنفعته إلا من لا إحساس له ولا مروءة "[13]

وصاح الشاعر مفدي زكريا قائلا :

واقرأ كتابك للأنام تقرأ به الدنيا الحديث الأروعا !
مفصلا [14]

ء - تحليل المضمون :

إن المضمون التاريخي القليل أريد به تقديم الحالة الشخصية للجزائريين بإثبات مراحل تاريخهم وحضارتهم وذلك ليجعل منهم أمة قائمة الذات، وأن إدماجها في فرنسا لا يعني شيئا غير تمويه للحقيقة التاريخية وتشويها للماضي.

ويظهر أن الميلي والمدني يلتقيان في إظهار شخصية البربري والعربي عبر التاريخ، على أنها شخصية لا تذوب في الغير، وأن الجزائريين يقطنون هذه المنطقة منذ القديم، وبين البربر والعرب علاقات تجعلهم أمة واحدة .

لقد كان اعتناق البربر للمدنية الفينيقية الكنعانية كونها لم تدخل عن طريق السيف والنار[15]ن سكان إفريقيا الشمالية عامة والجزائر خاصة شعروا بضرورة الاستقلال عن احتلال

الرومان للمنطقة الذي كان تسلطيا استعماريا لم يفد الأهالي في شيء.

أما البربر فقد حافظوا على لغتهم وأخلاقهم وعواطفهم، وسار الوضع هكذا على عهدي الو ندال والبيزنطيين إلى أن جاء الفتح الإسلامي، والذي اندفع الدني إليه بعاطفته، واعتبره بحق من محق الباطل، حيث استرجع البربر كامل حريتهم. أما الأتراك فلهم الفضل لأنهم من أنقذ البلاد من المخالب الإيبيرية، وعصرهم كانت فيه الجزائر في أفضل حال من أي بقعة في العالم [16].

ثم انتقل إلى التأريخ للاحتلال الفرنسي بالجزائر منذ 1830، ووضّح معالم الظلم والطغيان والاستبداد، كما أبرز المقاومات التي واجهت فرنسا من باب الاستمرارية التاريخية في عدم قبول الأجنبي ورفضه.

ويبدو أن العرض التاريخي الموجز كان بمثابة مدخل للجزائر الواقعة تحت سلطة قانون الأنديجينا، ولذلك فإن الحجم الأكبر للكتاب يتمثل في القضايا الراهنة (1930) والتي عرضها وأعطى أبعادها، وانتقدها واقترح بديلا لها، من ذلك معالجته لقضية توحيد المذاهب الإسلامية بالجزائر، إذ أن السياسة الاستعمارية عملت على التفريق بين أهل الوطن الواحد، وتجلى ذلك في الخلاف الذي غذي بين الاباضية والمالكية، فاستغل المدني

الفرصة، وأفرد المزابيين الإباضيين بحثا، أظهر من خلاله الاختلافات المذهبية الموجودة بين الفريقين [17]، وأكد بأنها تافهة لا تؤدي إلى درجة الصدام أو النفور، وذلك لتوحيد الصفوف الإسلامية ومواجهة العدو الواحد، والأفضل كما رأى المدني أن تتوضّح العناصر التي تختلف فعلا عن الجزائريين، ويتجلى ذلك في فصل الأجانب، فتحدث عن الفرنسيين وعوائدهم وأخلاقهم واستئثارهم بأكثر خيرات البلاد [18]، فاتصفوا بالأنانية والغطرسة واحتقار الجزائري المسلم.

لم ير المدني التوسع كثيرا في التأريخ للجزائر، بل أراد إيجاد أنجع السبل للخروج من الحالة الراهنة، فخاطب الشباب ليضعهم امام مسؤولياتهم وواجبهم، والنداء الأول كان لمحاربة الجهل بالتاريخ، حتى ينهضوا للبحث والقراءة في ماضي البلاد.

وقد تعرض لقضايا كثيرة ومختلفة شملت أغلب الميادين التي كان يعيش فيها الجزائريون، وكان يقول الكلمة التي تعبر عن الواقع، مبديا رأيه علانية، منتقدا الوضع الذي يعيش فيه مجتمعه بكل صراحة غير مكترث بما سيقع من رد فعل الإدارة، وطبّق هذا الأسلوب على كل القضايا التي عالجها، فظهر طبيب يصف الداء والدواء [19].

ولتأكيد ما ذهبنا إليه نورد بعض الأمثلة، فعن الحكومة المركزية والإدارة العامة في الجزائر رأى ضرورة إعادة النظر في كفاءة القيّاد وتحسين رواتبهم حتى يبتعدوا عن مواطن الريبة[20].

ورأى فساد النظام القضائي، بدليل انتقادات الناس لكثير من القضاة واتهامهم في ثقتهم وأمانتهم، والحل لمعالجة هذه المعضلة هو إحاطة القضاة بسياج من الاحترام وتحفظ لهم سلطتهم لتقطع جهيرة كل خطيب[21]، ورغم تقديمه لهذا الاقتراح إلا أنه أبدى أسفه الشديد على انعدام القضاة المسلمين بالمرة .

ووصف التعليم قائلا :

"أرأيت الشجرة الكبيرة وقد ذبلت أغصانها، وتناثرت أوراقها، من شدة الظمأ، واشتاقت قطرة ماء! تلك هي أمة الجزائر وذلك هو اشتياقها للتعليم، وناهيك بأمة تبلغ درجة الأمية فيها نحو 95 في المائة من مجموع أفرادها، ويبلغ نحو السبعمائة ألف من الصبيان لا يجدون إلى التعليم سبيلا "[22].

ومن خلال هذا الكلام، يظهر أن حالة التعليم خطيرة، وذكر ذلك بكل صراحة، وفي التشبيه الذي أورده خير مثال للتعبير عن الحالة السيئة، فانتقد الإدارة لأنها سبب التعطش، ومثل هذه الصراحة غير موجودة في كتب أخرى.

وبنفس الطريقة تحدث عن التعليم العالي في الجزائر وقارنه بمثيله في كل من مصر وتونس، ففي الجزائر 140 طالبا مقابل ستة

ملايين نسمة، أما بتونس فاكثر من ثلاثة آلاف نسمة لشعب لا يتجاوز المليونين من السكان، وبمصر أكثر من 22 ألف طالب [23].

إنه اعتمد أسلوب المقارنة وهو في محله، خاصة وأن المدني كان يقطن بتونس ويعرف الزيتونة، فظهرت له المقارنة جليا. كما أنه ظهر سياسيا، عندما قدّم إرشادات لتطوير التعليم فقال : "... نحث الأمة حثا شديدا على تأسيس مدارسها القرآنية في كل ناحية والإقبال بقوة على المدارس المفتوحة أمامها... ثم الإقبال على المدارس الصناعية والفلاحية "[24].

وتظهر جرأة المدني عندما تساءل عن حالة المسلم عامة ! فيجد انه من حيث المنطق والمعقول هو مسلم جزائري وكفى، ومن حيث القانون الدولي هو فرنسي، ومن حيث المعاملات الداخلية "رعية فرنسية"، يقوم بالواجبات ولا يتمتع بالحقوق الفرنسية، وإن أراد ذلك فيجب أن يتخلى عن الأحوال الشخصية، ولكنه أكد أن الشعب الجزائري، فضّل البقاء على حالة الضيم والإرهاق، ولم يقبل التمتع بالحقوق التي تأتيه عن طريق نبذ تعاليم دينه والتقاضي بغير ما أنزل الله [25].

إن هذا الموقف المصرح به خطير مقارنة بالوضع العام، ولكن غير خائف، وعبّر عن موقفه وموقف الشعب من ورائه، فديبارمي ذكر ان أفكار بعض الجزائريين أمثال المدني ليست إلا تعبيرا عما تردده جميع فئات الشعب الجزائري [26]

ووقف المدني إلى جانب ابن باديس في الدعوة إلى المساواة بين الفرنسيين والجزائريين، ولكي يعطي لرأيه وزنا قويا، استدل بأحاديث ابن باديس كقول الأخير : " لا تنظم العلاقات وينمو الود إلا إذا تعاملنا بصفاء على قاعدة أنت أنت، وأنا أنا، أما أن تصبح أنت أنا وأنا أنت فذلك عين المستحيل "[27].

كما أن المدني يرفض الاندماج وأكد أنه: "لم ير في التاريخ العالمي أمة من الأمم وقع عليها الاحتلال فاندمجت بكليتها في المحتل وأصبحت وإياه جزءا واحدا، وذلك مخالف لنواميس الطبيعة "[28]، ورأى بأن الجزائر أحرزت أم لم تحرز الحقوق السياسية سوف تبقى عربية مسلمة لن تترقى إلا بالجزائرية والعروبة والإسلام .

إن المدني من دعاة التجديد، فقد تحدث عن التعليم والمرأة والصحافة والشباب، وحثّ على تكوين المدارس والتخرج في المهن وإتقان الفلاحة والتجارة، وانتقد المدارس الرسمية الثلاث لتقاعسها، وبعض الطرق الصوفية لتخاذلها، كما انتقد الإدارة الاستعمارية.

هـ -أهمية الكتاب البيداغوجية :

إن للكتاب إضافة إلى محتواه، من حيث المعلومات والتوثيق، خصائص ومزايا أخرى، تتمثل في بيداخوجية المؤلف ومنهجيته، إذ تمكن من أن يقدم للقرّاء وسيلة مطالعة ومعرفية للواقع المعاش، بهدف استنهاض الهمم والقيام من الغفلة بمعرفة

ماضي وحاضر البلاد، ومن ثمة الابتعاد عن الجهل والإهمال، خاصة

وأن المكتبة الجزائرية تفتقر لمؤلفات من هذا النوع، وكم كان الواقع مؤلما للمدني، فنادى الشباب لمحاربة الجهل، وعرّفهم بواقعهم وطرق تغيير ذلك، للخروج من الأزمة .

ولذلك اقترحت جمعية العلماء التدريس بهذا الكتاب بطريق الإلزام في المدارس الابتدائية[29]، وذكرت الشهاب بان كتاب الجزائر صورة صحيحة مصغرة للجزائر من جميع حياتها في ماضيها وحاضرها وشرارة كهربائية تبعث الحياة في أبنائها، وتنير لهم سبيل العمل[30].

ويعتبر وثيقة هامة لمعرفة أوضاع البلاد خلال الحقبة الاستعمارية الصعبة، ولا يمكن لأي باحث الاستغناء عنه.

ي -النقد والتقييم :

كتاب الجزائر لم يخل من نقائص وأخطاء تاريخية، وأول القضايا تفريطه في عقد صفحة أو صفحتين في أول الكتاب أوآخره لذكر المصادر والأمهات التي استقى منها المعلومات، حتى يمكن لمن يريد التوسع الرجوع إليها. كما كان عليه أن يشير في آخر صفحة مصادر معلوماته، ولكنه اتبع نفس طريقة كتاب قرطا جنة، بإهمال الإحالات، خاصة وأنه يعرف الفرنسية،

ويمكن له الإطلاع على منهجية الدراسات التاريخية. ولا يمكن إيجاد عذر للمدني في هذا الأمر، لأنه حتى بعد الاستقلال أصدر كتابه "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492 -1792)[31] ولم يهتم بالمنهجية .

ونظرا لما لقسم التاريخ في الكتاب من أهمية كبرى، فكان من الواجب أن يهتم بذلك نظرا للوضعية الراهنة، خاصة ما جاء في أهم مواقف المؤرخين المنحازين للنظام الاستعماري

وعندما أرّخ للدول التي مرت على الجزائر، لم يذكر الدولة الحفصية وهي من الدول الإسلامية التي بسطت سلطتها الفعلية على النصف الشرقي من الجزائر وأخضعت مرارا ملوك الدولة الزيانية التي كانت تحكم النصف الغربي لنفوذها، وأخبار هذه الدولة موجودة في كتاب الفارسية لابن قنفذ القسنطيني،وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي، وبما أن هذا القطر دخل مرارا تحت حمايتها وحكمها،كان من المفروض أن يخصص لها جزء في كتاب الجزائر

وأطلق تسمية "الدولة" على بعض الحكومات الإسلامية كدولة بني حماد والمسيلة، بينما أطلق تسمية "الإدارة" على البعض

الآخر كالإدارة الأغلبية والفاطمية، وفي ذلك تنقيص واستصغار لهذه الأخيرة التي ملكت مصر والشام .

في حين اهتم المدني في الصفحة 23 بأحداث 737م/140هـ، من ظهور أبي قرة الصفري بتلمسان واجتماع البربر حوله منفصلين عن مذهب مالك، معتنقين مذهب الاباضية[32]

إلاّ أنّ مذهب مالك لم يكن آنذاك شاملا كل المغرب العربي، إنما كان في عهدة حكم إدريس الأول (حكم بداية من سنة 172هـ) الذي قام للقضاء على ما كان بالمغرب من مختلف العقائد والأديان، واقتصر على مذهب مالك، والذي أدخل موطأ مالك للمغرب هو أبو الحسن علي بن زياد، وعنه أخذ الإمام سحنون [33].

وقوله في نفس الصفحة :" في هاتيك الأثناء أسس المولى إدريس الأكبر الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى وجعل فاسا عاصمة لها"، وفي ذلك خطأ من ناحيتين، فالمولى إدريس الأكبر لم يؤسس الدولة الادريسية إلاّ في 172هـ/788م، وليس هو الذي أسس فاسا وجعلها عاصمة، وإنما ولده المولى إسماعيل إدريس وذلك سنة 192هـ/807م [34].

كما انه جعل دولة بني الأغلب بربرية، ولكنها لم تكن تمُت للبربرية بصلة، فرجالها عرب، وصبغتها كانت عربية صرفة [35].

وفي الصفحة 87 عدّ المؤلف العلامة المؤرخ الشريف سيدي محمد بن الطيب القادري مؤلف نشر المثاني، من نبغاء الجزائريين، ويذهب أحد الكتاب المغاربة إلى أن ذلك وهم، فإن المذكور من أهل فاس أنه ولد بفاس سنة 1712م/1124هـ، وتوفي سنة 1187/1773هـ[36].

وعند حديثه عن تاريخ الصحافة بالجزائر، وعدّد ما يصدر بها من الجرائد والمجلات العربية أغفل مجلة "إفريقية" التي كانت تصدر بالعاصمة تحت إدارة مؤسسها المستشرق "بودي لوي" سنة 1919.

كما أنه أغفل ذكر منطقة جريدة صدى الصحراء، وذلك ببسكرة [37].

وإذا كان التأريخ مبنيا على السنين، فإن المدني أهمل في بعض المواقع تعيين التاريخ الهجري من المسيحي، وذلك ما يسبب اضطراب القارئ فلا يعرف أيهما يأخذ، فمثلا قوله في تاريخ بلدة "القرارة"ص211، أنها تأسست في أواسط القرن 11 بدون ذكر لا للهجرة أو الميلاد! كما انه جعل عمر الدولة الرستمية 132 سنة،والمعتمد أنها لم تتجاوز المائة والثلاثين سنة [38].

ثم أنه عزا تأسيس البليدة لسيدي أحمد الكبير بإعانة مهاجري الأندلس في سنة 1553، بينما نراه يؤرخ وفاة هذا الرجل سنة 1550، من الصفحة نفسها[39] فما هذا الاضطراب وعدم التركيز

والتأكد ! وأغفل تراجم بعض الفطاحل المشهود لهم بالعلم والأدب والإصلاح كالشيخ مصطفى بن الخوجة والشيخ عبد الحليم بن سماية والشيخ بن الكبابطي ممن ناضلوا عن هذه الأمة[40] .

وفي الصفحة 288 ذكر أن تأسيس مدينة وهران سنة 902/1496هـ، والمعروف أنها تأسست على يد محمد بن عبدون ومحمد بن أبي عودة وجماعة من الأندلسيين سنة 902م/290هـ[41].

وذكر المدني في كتاب حياة كفاح ان ضجة الاستحسان حامت حول الكتاب منذ صدوره إلى الآن (1977) [42]. ولكنه لم يذكر كيفية الترويج، لأن إحدى الصحف المعاصرة [43]علّقت على ذلك، بأن الألفي نسخة المطبوعة من كتاب الجزائر لم تختطفه الأيدي اختطافا لدى صدوره، واضطر مؤلفه إلى بذل جهود أخرى لترويجه.

وإذا كان عبد الله كنون من الذين انتقدوا كتاب الجزائر، فإنه تمنى أن يكون لتونس والمغرب ما للجزائر من كتاب مثل كتاب الجزائر [44].

من خلال عرض مضمون الكتاب، يتضح لنا أن مؤلفه تناول فيه خلاصة للتاريخ الجزائري، وعرضا للوضعية السياسية والاجتماعية، والاقتصادية والثقافية بنظرة متفحصة، باحثة عن

الخلل، وقدّم معلومات هامة، خاصة وأنه جد مدرك لواقع الشعب الجزائري وسياسة الإدارة الفرنسية، فكانت أخباره نتيجة ثقافته الشخصية ومعرفته الخاصة، وبعضها استقاها من الإحصاءات الرسمية. وعبّر المدني فيما خطه عن مواقفه من الأوضاع، وأبدى رأيه في القضايا المطروحة، وقد التزم فيما قدّمه الصدق والدقة في تسجيل الأحداث، وحرص على تبليغ رسالة لفهم الأوضاع والبحث عن المصلحة الخاصة بالجزائريين، وهو في ذلك يشبه كتاب المرآة لحمدان خوجة الذي شرح فيه وضعية الجزائر.[45]

إن كتاب الجزائر عظيم الأهمية لدارس الحياة العامة في الجزائر، لأن المؤلف "عرض فيه لأول مرة تاريخ الجزائر وواقعها، على حسب وجهة النظر الجزائرية الإسلامية العربية، وشرح حال الشعب في مختلف مناحي الحياة"[46]، وما كتابه إلا صورة واضحة لوضعية البلاد، ولا يستطيع أن يقوم بهذا الدور إلا الذي توصل إلى تحليل المعطيات المختلفة، والذي ظلّ متمسكا بالقيم والأخلاق.

وقال أحد المؤرخين أن كتاب الجزائر موسوعي قدّم تاريخا وطنيا وعرّفه بالموسوعة الوطنية الجزائرية[47].

ويعتبر هذا الكتاب فريدا من نوعه خلال فترة الدراسة، فلم يسبق أحد الكتاب الجزائريين المدني إلى هذا الموضوع،

فأغلب من سبقه كانت قصارى جهدهم معالجة الموضوعات التاريخية المجرّدة عن العناصر الأخرى التي تتصل بالجغرافية والثقافة والحياة الإجتماعية بوجه عام، فالمدني مزج بين التاريخ والوطنية والحضارة والإدارة مما كان له علاقة بحياة الشعب الجزائري.

إن كتاب الجزائر من حيث الأفكار التي تطرّق لها تلخص فكرة المدني عن الإصلاح، ورأيه في المجتمع واستيعابه لواقع ومتطلبات عصره.

وعن هذا الكتاب قال مولود قاسم نايت بلقاسم :"لو لم يكن للأستاذ أحمد توفيق المدني إلا هذا الكتاب لكان يكفيه"(48).

الهوامش:

(1)المدني، كتاب الجزائر،نشر دارا لكتاب ،البليدة ،الجزائر ط2 طبق الأصل1382 -1963.

(2)صالح خرفي/الأبعاد التاريخية في الشعر الجزائري الحديث/في/الثقافة، الجزائر، س1، ع1، محرّم 1351هـ، مارس 1971، ص53.

(3)المدني، نفس المصدر السابق.

(4)نفسه، ص373.

(5)من خلال رسالة أرسلها المدني إلى عبد المالك مرتاض من مدينة اسلام أباد بتاريخ 1972/11/20. الرسالة موجودة في كتاب عبد المالك مرتاض، **فنون النشر الأدبي في الجزائر، 1931 -1954**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص251.

(6)Ben cheneb (saadeddine),quelques historiens arabe moderne de l'algerie,in,revue société historique algérienne,Alger,vol 100 ,1956 ,p 492.

(7)سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،لبنان ،ط1 ،ص422.

(8)ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، ت عبد القادر الخلادي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977/1397، ص64.

(9) **Histoire de l'algerie contemporaine (1834-1979)**, imprimerie de presse universitaire de France, 1980 (que sais-je?) p88.

(10)لوثروب ستودارد الأمريكي، **حاضر العالم الإسلامي**، ت عادل نويهض، تعليق الأمير شكيب أرسلان، 4ج، 2م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1973/1394، م2، ج4، ص105 (هامش) رقم 1.

(11)قنانش، **المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية (في فجر النهضة الحديثة)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، [دت]، ص114.

(12)كتاب الجزائر كذلك وبمثل ذلك يؤدى الواجب أيها الجزائري الناشئ/في/الشهاب، ج3،م8، غزة ذي القعدة 1350هـ/مارس 1932، ص160.

_المصدر مذكرات، 3 أقسام ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر د ت، ج، ص35.

(14)اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1991، ص57.

(15)المدني، كتاب، المصدر السابق، ص11.

(19)لقاء مع الشيخ أحمد شقار الثعالبي، جوان 2001، بابن عكنون.

(20)المدني، المصدر السابق، ص253.

(21)نفسه، ص317.

(22)نفسه، ص273.

(23)نفسه، ص282.

(24)المدني، ص290.

(25)نفسه، ص328.

(26)بوضرساية بوعزة/بعض جوانب الحركة الوطنية في منظور ديبارمي/في/الثقافة، الجزائر، ع104، سبتمبر -أكتوبر 1994، ص110.

(27)المدني، المصدر السابق، ص330.

(28)نفسه، ص329.

(29)الشهاب، المقال السابق .

(30)نفسه.

(31)راجعه سعد الله في كتاب : **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، 4ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3 1990، ج1، ص347.

(32)عبد الرحمن الجيلالي/ كتاب الجزائر تجاه النقد/في / الشهاب، الجزائر، ج5، م8، غرّة محرم 1351، ماي 1932، ص267.

(33)محمد الشريف قاهر/المذهب المالكي في الغرب الإسلامي/محاضرة ألقيت بالمجلس الإسلامي الأعلى يوم 2001/09/16، الجزائر

(34)عبد الله كنون،كتاب الجزائر ،في النجاح،لصاحبها عبد الحفيظ الهاشمي،الجزائر،س2 ،ع138 ،الجمعة 02ربيع الثاني 1351 ه_05 أوت 1932 ص 3 .

(35)نفسه.

(36)كنون،التعاشيب،دار الكتاب اللبناني،بيروت،لبنان ،ط2 ،1975 ،ص132.

(37)الجيلالي، المقال السابق،ص270

(38)نفسه، ص 269

(39)المدني، المصدر السابق،ص186

(40)دون إمضاء/كتاب الجزائر/في/ البلاغ الجزائري، الجزائر، س6، ع230، يوم الجمعة 3ذي القعدة 1350/1932هـ، ص3

(41)الجيلالي المقال السابق، ص 271.

(42)المصدر السابق، ص207.

(43)سعيد/كتاب الجزائر وما هو واجب الأمة إزاءه؟/ في/النور، الجزائر، س1، ع30، الثلاثاء، 19 ذي القعدة1350/ 26 أفريل 1932، ص1.

(44)المقال السابق.

(45)ألّفه سنة 1833 دفاعا عن الجزائر لكنه ضاع ولم تبقى منه سوى الترجمة الفرنسية التي أنجزها في نفس السنة وزير خارجية ليبيا. وقام محمد العربي الزبيري سنة 1972 بتعريبه وطبع ثلاث مرات .

(46)كنون، المرجع السابق، ص175.

(47)أجيرون، المصدر السابق، ص326 .

(48)العدواني، (محمد الطاهر)كلمة تأبين بمناسبة الأربعين،في مجلة التاريخ،ع 18 الجزائر، 1975، ص169.